الدكتور فيكل

للكاتب الروسي أنطون تشيكوف

بقلم الأديب أزاد نوري محمود

خرجت (واندا) الحسناء من المستشفى وهي فقيرة معدمة . . ماذا تفعل ! وكل ما عندها من حطام الدنيا خاتم ذهبي ذو ماسة براقة ، وقد اضطرت لشدة احتياجها للمال أن تبيعه بروبل واحد . . ولكن روبلا واحدا لا يكفيها لشراء ما تهفو إليه نفسها

إنها تحتاج إلى ملابس جديدة لتبدو فيها أجمل مما هي الآن ، وقبعة بيضاء تزهو بها بين الفتيات ، وهذه الأحذية المالية التي أكل عليها الدهر وشرب تبعث الاشمئزاز إلى نفسها . . ولكن ماذا تفعل ؟

وكانت تشعر بخجل واضطراب كلما رأت العيون تحدق فيها وفي ملابسها الرثة وسحنتها الزرية . والغريب أنها تتوهم أن الحيوانات إذا ما رأتها تتقزز من منظرها وتدمدم غاضبة . وكثيرا ما انفردت بنفسها تناجيها :

— آه . أين ذلك الذي ينتشلني من هذه الوهدة ، وينقذني من شقائي . . أخشى ألا أجد أحدا

ثم فكرت في الذهاب إلى (تيفولي) . . وهناك كانت تأمل أن تلتقي بصديقاتها المنشودة . ولكن، أبهذه الملابس القذرة المهلهلة تذهب إلى تيفولي ؟ هل تقدم على ذلك ؟

وأطلقت لأفكارها العنان : إلى أين أستطيع الالتجاء ؟ ولا وزر لي في تيفولي . . أإلى (ميشيل) ؟ لا ، لقد تزوج منذ أيام ، أم إلى ذلك الحرم الساذج (أوسيب) ، وأخشى أن يكون منهمكا في أعماله

ثم هبت بغتة عندما جال بخاطرها اسم (فيكل) طبيب الأسنان في تيفولي ، وتذكرت أنها زارته قبل بضعة أشهر عندما وهبها بعض الأساور الجميلة. وداعبها في تلك الليلة حتى أغاظها فلم تتمالك أن أفرغت قدحا من الشراب على رأسه . إنه طيب القلب مرح . فلا بد أن يعطيها شيئا إذا زارته اليوم

وهكذا جدت (واندا) السير في طريقها إلى منزل فيكل وقد سرت فيها انتعاشة فياضة وانبعث منها حمية ونشاط . . وكانت تتمتم بخفوت :

— إذا كان في المنزل ولم يعطني شيئا فسأجدع أنفه ! ! وسأحاول إغراءه بشتى الوسائل على أحصل منه على ٢٠ روبلا

لكنها أنكرت هذه الفكرة وحاولت إبعادها من رأسها؛ وانتابتها قشعريرة وأخذت تترنح في سيرها وشعرت بارتباك وخوف . .

وعندما اقتربت من منزل الطبيب ترددت في طرق بابه . . وتسمرت في مكانها لحظات واجمة تفكر :

— ربما يكون قد نسيني . ثم هذه الملابس الرثة . . هذا المنظر الذري . . رباه !

ووانتها شجاعة حينما تقدمت غير هيابة وطرقت الباب بقوة . . وصاحت : — هل الطبيب هنا ؟

وبرزت الخادمة . وخطت نحوها ثم قادتها إلى غرفة الانتظار دون أن تنبس . . وغاصت واندا فوق المقعد الوثير سارحة الفكر شاردة اللب . . وأبصرت نفسها في مرآة مقابلة . . لقد كانت صورة واضحة للبؤس والشقاء والتشرد

ثم خاطبتها الخادمة بعد هنيهة :

— تفضلي بالجلوس هنا . . سيحضر الطبيب بعد دقائق

وكانت واندا تفكر فلم تفقه من كلام الخادمة شيئا . . وسادت نفسها :

— لم هذا التهيب ؟ سأسارحه بالقول وأقترض ما أطلب من مال . . ولا عيب في ذلك ! وسيتذكرني حالما يراني . . ولكن هذه الخادمة السمجة ، مالها جدت في مكانها لا تبرحه؟ لن أصمد إلى غرفته إن بقيت في مكانها

وفجأة دخل (الدكتور فيكل) بقامته الفارعة ووجهه المتجهم وعينيه اللتين ينبعث منهما وميض الاعتزاز والكبرياء ، تدل سحنته العابسة على أنه متشبث برأيه بصعب إقناعه . ودهشت واندا لتجهمه وعبوسه وقد عهدت فيه المرح والانشراح. وفي تلك الليلة التي زارته في منزله داعبها وهو طلق الأسارير ضحوك . ما باله تغير هكذا ؟ وكأنه ببروده وتكلفه الابتسام موظف رسمي في ديوانه ...

واقترب من واندا وقبل أن يتفرس فيها جيداً سألها بهدوء :

— ماذا يوسعني أن أفعله لك ؟

ووجف قلبها عندما خاطبها الطبيب بلهجة من لا يعلم عنها شيئا . . وأخذت تحدق في تلك الخادمة الأمينة بنظرات تتلظى وغضب مكتوم ، واصطبغت وجنتاها بحمرة خفيفة عندما خاطبها ثانية : — هل أستطيع أن أقوم بشيء ؟

وأجابته على الفور بصوت متهدج واهن وهي تصر على نواجذها :

— أسناني . . أسناني تؤلمني قليلا يا دكتور . .

— ها . . صحيح ؟ وتذكرت واندا سنا لها كانت تؤلمها أحيانا :

— في الفك الأسفل ، نحو اليمين . ... حسنا افتحي فمك جيدا ...

وزوى فيكل ما بين حاجبيه وبدت عليه صرامة قاسية وتنهد تنهدة عميقة ، ثم شمر عن ساعديه وأمر أصابعه على أسنان الفتاة بهدوء ، ثم أدخل في فمها آلة قاطعة :

— هل هذه السن تؤلمك ؟ نعم .

واستسلمت بين يديه بهمود وتراخ وشرعت تفكر

— إذا عرفته بنفسي .. فلابد أنه يتذكرني جيدا ، ولكن هذه الشيطانة لا تزال جامدة هناك كالصنم

وشعرت بألم حاد حينما اقتلع سنها بقوة ، وندت عنها صرخة مكتومة وحاولت أن تمسك يديه . . وصاح فيها : — ماذا تفعلين ؟ إن سنك قد فسدت ولا تصلح لك ألبتة . . وعليك ألا تهملي شأن أسنانك منذ اليوم يا صغيرتي . .

قال هذا واستوى واقفاً على قيد خطوات منها وكأنه ينتظر خروجها . بعد أن أنهى عمله .. وهبت الفتاة ناهضة وتوجهت نحو الباب بخطى مضطربة والتفتت نحو الطبيب وقالت وقد افتر ثغرها عن ابتسامة متكلفة :

— إلى اللقاء يا دكتور . .

ولمس فيكل زمام ضحكة كانت على وشك الانطلاق ثم أجابها بتهكم مرير :

— إلى أين ؟ لقد نسيت الأجر !

واصفر وجه (واندا) ثم اكتسى بحمرة الخجل ، لكنها تمالكت نفسها :

— أوه ... المعذرة ، لقد نسيت ذلك ؛ عفواً .

وازداد ارتباكها وهي تتلقى نظراته النفاذة ، وسرعان ما أخرجت الروبل الوحيد الذي تملكه وألقته بين يدي الدكتور فيكل وهي ترتعش ..

ومزقت من الغرفة ماضية نحو الشارع عجلى وهي تشعر بخجل لم تشعر بمثله في حياتها . وطفقت تطرق الشوارع القفراء بحذائها البالين وهي ساهمة شاردة ، ولعلها كانت تحلم باللابس الجديدة والقبعة البيضاء ذات الشرائط الوردية وآمالها الموءودة .. من يدري ؟ ..

أنور لوسي محمود

ظهر المجلد الثالث
من كتاب
وحي الرسالة
فصول في الأدب والنقد والسياسة
والاجتماع والقصص
للأستاذ احمد حسن الزيات بك